د. صلاح الدين الندوى*

من تراث الأدب الجاهلى

الشنفرى الصعلوك
بين الحقيقة والأسطورة

لا شك أن الصعاليك ينقسمون إلى: الصعاليك الجاهليين والإسلاميين. وفى حكم المتفق عليه بين الروايات أن الشنفرى صعلوك جاهلى و "لم يخالف فى ذلك إلا صاحب القاموس المحيط حيث عده من أغربة العرب الإسلاميين، وهم سواد الألوان تشبيها بالغراب المشهور بالسواد"[1] فالشنفرى صعلوك جاهلى. وحين نسمع هذا الاسم الغريب يلتفت الذهن إلى العصر الجاهلى، فنلقى نظرة على العصر الجاهلى بإيجاز، لنعرف كيف كانت حياة العرب فى العصر الجاهلى؟ وما هى تلك الدوافع التى دفعت بعضهم إلى حياة الصعلكة؟ ومن هم الصعاليك؟

العصر الجاهلى

العصر الجاهلى ينقسم إلى قسمين: الجاهلية الأولى: وهى "الحقبة الزمنية الموغلة فى القدم"[2] والتى لم تصل إلينا أى أثر أدبى ولا نعرف عنها شيئا سوى ما ذكر فى القرآن الكريم من أسماء القبائل التى كانت فى تلك الحقبة. أما الجاهلية الثانية فيقصد بها الفترة الزمنية التى سبقت الإسلام بقرن ونصف أو قرنين على الأكثر. وهى الفترة التى اكتملت فيها للغة العربية كل خصائصها، وميزاتها الصوتية والتعبيرية.[3] كما أشار الجاحظ فى كتابه *الحيوان* إلى ذلك بقوله: "أما الشعر -العربى- فحديث الميلاد صغير السن، أول من فتح سبيله، وسهل الطريق إليه امرؤ القيس بن حجر ومهلهل بن ربيعة.

---

* أستاذ مساعد من قبل هيئة الإغاثة الإسلامية العالمية بالسعودية

فإذا اسطهرنا الشعر وجدنا له -إلى أن جاء الله بالإسلام- خمسين ومائة عام. وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتي عام"[٤]

عنى كلمة الجاهلية

لا يقصد بها أنها مشتقة من الجهل الذي هو ضد العلم، وإنما تعني هذه الكلمة السفه، والغضب، والنزق، وتقابل كلمة الإسلام. فيقول عمرو بن كلثوم:

(ألا لايجهلن أحد علينا
فنجهل فوق جهل الجاهلينا)

ومعنى البيت: لا يكن من أحد سفه والطيش أو حمق، فيجد منا في مقابلته ثأرا أشد وأقسى.[٥]

وجاءت الكلمة في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف لتؤكد على معنى الطيش والحمية والعصب. ففي وصف عباد الرحمن يقول الله سبحانه وتعالى: { وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما }[٦]

وجاءت الكلمة على لسان موسى حين طلب من قومه أن يذبحوا بقرة، فظنوا أنه يستهزئ بهم، فقال : { معاذ الله أن أكون من الجاهلين }[٧]

ووردت الكلمة في الحديث النبوي حيث قال الرسول صلى الله عليه وسلم لأبي ذر حين سابّ رجلا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فعيره بأمه (إنك امرؤ فيك جاهلية)[٨]

حياة العرب في العصر الجاهلي :

الجزيرة العربية واسعة مختلفة المناخ، وفيها المنطقة الصحراوية الجبلية المرتفعة ذات الأغوار المنخفضة الشديدة الحرارة، وفيها الجبال الشاهقة ذات القمم الشاهقة، وفيها الأغوار والجبال والمناطق الرملية الكثيرة المخاوف، وفيها مناطق عرفت بالجدب الذي يدفع العربي إلى الهجرة والتنقل وعدم الاستقرار. ومن هنا احتقروا الزراعة والصناعة وجعلوها من معاش الضعفاء وأهل العاهة. ولم يبق أمامهم إلا الصيد والقنص والرعي والتجارة، لأنها في زعمهم تليق بالكرماء.[٩]

وحياة الصحراء بمجاهلها ومخاوفها ربت في أبنائها الاعتماد على النفس، وخلقت منهم رجالا أقوياء يمتازون بالشجاعة والجرأة وعزة النفس والألفة كما جعلت الكرم من أخص شمائلهم وأبرز أخلاقهم.[١٠]

وكانت هذه البيئة سببا في وجود شيء كثير من الضيق في العيش والفقر والحرمان لوجود المناطق الجدبة التي يتعرض أهلها للحرمان. ولهذا نشأت طوائف الصعاليك الذين لم يجدوا وسيلة إلا السلب والنهب والغزو والإغارة على الأغنياء. ومن هؤلاء الشعراء الصعاليك الشنفرى.[١١]

الصعاليك في العصر الجاهلي :

ومعنى كلمة الصعاليك يختلف من حيث اللغة والاصطلاح : معنى كلمة

الصعلوك من حيث اللغة هو (الفقير الذي لا مال له).. ولا اعتماد. وقد تصعلك الرجل إذا كان كذلك. ومعنى التصعلك هو الفقر.[١٢]

وصعاليك العرب ذؤبانها. و(كان عروة بن الورد يسمى عروة الصعاليك، لأنه كان يجمع الفقراء في حظيرة، فيرزقهم مما يغنم) و(ذؤبان العرب لصوصهم وصعاليكهم) أو كما قال ابن الأثير : (يقال لصعاليك العرب ولصوصها ذؤبان لأنهم كالذئاب).[١٣]

فالصعلكة في مفهومها اللغوي تعني الفقر الذي يجرد الإنسان من ماله، ويظهره عاريا هزيلا بين أولئك الأغنياء المترفين حتى يدفعه الفقر الى التمرد والثورة على القيم والتقاليد، يبدأ بمواجهة الحياة منفردا، وقد يسلك في ذلك طرق الاغتصاب والسلب والنهب والقتل والجريمة. ويعتمد على الفروسية والقوة والسيف والرمح وغيرذلك.

أما من حيث الاصطلاح الأدبي فقد استعملت الكلمة: "صعلوك" بمفاهيم مختلفة منها ما جاء في قول عمرو بن براقة الهمداني:

تقول سليمى: لا تعرض لتلفة
وليلك عن ليل الصعاليك نائم
وكيف ينام الليل من حل ماله
حسام كلون الملح أبيض صارم
ألم تعلمي أن الصعاليك نومهم
قليل إذا نام الخلي المسالم

فمن الواضح في هذه الأبيات وسياق السرد القصصي أن الصعاليك هنا هم الفقراء. وإنما هم المشاغبون المغيرون، أبناء الليل الذين يسهرون لياليهم في النهب والسلب والإغارة بينما ينعم الخليون المترفون المسالمون بالنوم والراحة والهدوء. وهنا تخرج الكلمة عن الفقر الى دائرة أوسع هي دائرة الإغارة والنهب والسلب.

والمتبع لهذه الظاهرة في العصر الجاهلي وغيره يرى أن الصعاليك هم طائفة أو طوائف من قطاع الطرق، كانوا منتشرين في أرجاء الجزيرة العربية، ينهبون القوافل، ويغيرون، ويخطفون، ويسرقون المال.[١٤]

الشنفرى الصعلوك وبيئته:

قد كتب صاحب "لامية العرب" عن بيئة الشنفرى وهو يقول: "قد نشأ الشنفرى في منطقة السراة، وهذه المنطقة هي منطقة جبلية فيما بين مكة والمدينة، وأبرز معالمها الجبال، حتى أنها تسمى جبال السراة، وهي البيئة الجبلية من العوامل التي تيسر لأبنائها حياة الصعلكة. وذلك لسببين، الأول: أن البيئة الجبلية دائما قليلة الخصب، فتسيطر الحاجة عادة على أكثر أبنائها، وهذا بطبيعة الحال يدفع بعضهم الى اللصوصية وقطع الطريق، ممن يكون لديهم الاستعداد النفسي والجسمي لهذه الحياة. والثاني: أن المناطق الجبلية أنسب الأماكن للمطاردين بما تيسره لهم من وسائل الحماية والتخفي سواء في طيانها وكهوفها وقممها"[١٥]

ففي هذه الأرض نشأ الشنفرى الصعلوك، ولم تحدد الروايات، ولم يكن في وسعها أن تحدد زمن ولادته، ولا زمن وفاته، وإن كان من المرجح أنه كان في الجيل السابق للإسلام مباشرة.[١١]

أما البيئة الاجتماعية للشنفرى فقد كانت شديدة القسوة، وقد صاحبته هذه القسوة منذ عرف نفسه، حتى تقى حتفه، أو على الأصح هذه القسوة هي التي دفعته إلى أن يسلك حياة الصعلكة التي لابد أن يلقى فيها حتفه.

إن الشنفرى لم يعرف حياة الراحة والدعة قط، بل ولم تعرف حياة الاستقرار والانتماء الاجتماعي قط. فقد عدا عليه بعض العادين في إحدى الغارات التي كان يغيرها بعض القبائل على بعض، والتي كانت شائعة ومألوفة في كل أرجاء الجزيرة العربية قبل الإسلام، وكان الشنفرى حينئذ غلاما صغيرا ـ كما تذكر الروايات ـ حين أعدوه أسيرا، وإذا هو وجد نفسه أسيرا في ذلك الحي من بني لهم. وبعض الروايات تذكر أنه لم يؤخذ أسيرا، وإنما انتقلت به أمه إلى بني فهم حين قتل أبوه، فلم تجد في قومه نصيرا يأخذ بثأر زوجها. والذين قتلوه ـ كما تذكر هذه الرواية ـ هم بنو عمومته الذين أصبح الشنفرى فيما بعد ألد أعدائهم وهم بنو سلامان بن مفرج. فانتقل الشنفرى أو نقل من بين أهله وموطنه إلى غرباء، وكان مضطرا ومكرها على هذا الانتقال، وكانت حياته في هذا الانتقال غير كريمة، ولا عزيزة في كلا الاحتمالين، فحياة الأسير وحياة الجار كلتاهما لم تكن تحظى بكرامة ابن القبيلة وعزته. بل كانت أقرب إلى الاعتباد والإذلال. وكان حتما على الأسير أو الجار أن يقبل من سادته أبناء القبيلة صورا من التعالي والتحقير لابد أن تؤذي النفس الأبية إيذاء غير يسير، وقد كانت نفس الشنفرى شديدة الإباء. فيمكن أن نتصور أي إيلام قد كانت تعانيه منذ صباها في حياة الأسر أو ما يشبه الأسر.[١٢]

ولا شك أن النقمة التي كان يحملها الشنفرى لبني سلامان لم ترتبط بسبب واحد. وإنما كانت الآلام تجمعت في نفسه، حتى ملأتها حقدا وبغضا لبني سلامان.[١٣] والروايات التي تبين علاقة بين الشنفرى وفتاة من بني سلامان أو بعض هذه الروايات التي تشير إلى أن الشنفرى كان يحب تلك الفتاة التي كانت تسمى قعسوس، وكان يريد أن يتزوجها، لكنها رفضته. ولا ريب أن الشنفرى لم يحمل لبني سلامان بوما ما شيئا من ود أو إلف أو حتى رضا، ومعلوم أن الروايات كلها اتفقت على أن الشنفرى أقسم ليقتلن من بني سلامان مائة رجل. فليس من الطبيعي أن نقول إن النقمة التي كان يحملها الشنفرى لبني سلامان هي نتيجة طبيعية لمجرد سبب من الأسباب السابقة. فليس مجرد رفض فتاة الزواج من شخص، أو حتى صفعها إياه لسبب ما كافيا لأن يحمل لقومها هذا البغض العارم المدمر.

اسمه ونسبه:

والواقع أن أخبار الشنفرى كلها قليلة ومضطربة، حتى ليتعارض رواتها بعضهم بعضا، ومن هنا ترددت كلمة "لا" النافية في أول كل خبر منها. ومن الحق أن يذكر Lyall (لايل) أن القصص التي تروى حول الشنفرى لاتتفق دائما مع قصائده، وإنما هي أقرب إلى أن تكون صورة من الأساطير الشعبية التي كثرت حول أبطال العصر الجاهلي من أن تكون أخبارا حقيقة.[٢٢] فيحيط الغموض باسمه، ونسبه ونشأته. وكل ما عرف عن اسمه ونسبه هو أنه الشنفرى بن الأوس (بفتح الهمزة أو بكسرها أو بضمها) بن الحجر (بفتح الحاء وسكون الجيم) بن اهنئ (بوزن كليب) بن الأزد كما ورد في الأغاني للأصفهاني ج٢١.

وفي رواية أنه الشنفرى بن الأوس بن الغوث بن زيد بن كهلان ـ كما ذكر المبرد في تعريفه ـ وفي رواية أنه من بني الحارث بن ربيعة بن الأواس من قبيلة الأزد اليمنية ـ كما ورد في شرح المفضليات للضبي.[٢٣]

فالرواة لم يقفوا عند هذا التناقض في الروايات، ولم يقدموا لنا الوسائل الكافية التي تعيننا على إزالة هذا التناقض، لأنهم لم يذكروا شيئا له قيمة عن أسرة الشنفرى، لا عن أبيه، ولا عن أمه، حتى لاحظ بعض الباحثين "أن أصل الشنفرى ونسبه مسألتان شديدتا الغموض".[٢٤]

والشنفرى هو الاسم، وقيل لقب للشاعر، لأن معناه الرجل الغليظ الشفتين، وغلظ الشفتين سمة من سمات الجنس الأسود عند عدماء الأجناس. ولذلك جعل بعض الباحثين دليلا على "أنه من المرجح أن دما أفريقيا أو زنجيا أو حبشيا كان يجرى فى عروقه".[٢٥]

وفرع الشنفرى من قبيلة الأزد فى الروايات، فهو أزد شنوءة التى استوطنت منطقة السراة فيما بين مكة والمدينة، وتختلف الروايات فى سبب وصفهم بشنوءة، فبعضها يجعلها من الشنآن وهو العداوة، ويسوق لذلك أحداثا من الخصومة والعداء فى أحداث تتعلق بخزاعة، سموا من أجلها أزد شنوءة. وبعضها يذكر أن شنوءة حلاف باليمن، ومعنى ذلك أن نسبتهم هذه ليبان موطنهم من اليمن: بينما تذكر رواية أخرى أن كموطنهم باليمن ليس شنوءة، وإنما أبيدة. ومهما يكن من شئ فالشنفرى أزدى، وفرعه من الأزد استوطن السراة، ولذلك يسمون أحيانا أزد السراة: وكان ذلك قبل الإسلام بزمن غير قصيرة.[٢٦]

ومن القرائن التاريخية التى تقرب تحديد زمن الشنفرى أن صديقه تأبط شرا كانت له أخت تسمى آمنة تزوجت من نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصى الذى أسلم ابنه عدى سنة ٨ هـ كما نقل بروكلمان فى تاريخ الأدب العربى ج١، ومعنى ذلك أن تأبط شرا كان فى الجيل السابق للإسلام، والشنفرى كان صديقه رغم أنه كان أكبر منه سنا، ومات قبل تأبط شرا، ورثاه تأبط شرا بشعر - كما سنرى - فيكون الشنفرى أيضا من الجيل السابق للإسلام مباشرة.[٢٧]

فالشنفرى كان واحدا من أولئك الأغربة الذين كانوا يمدون حركة الصعلكة بجماعات كبيرة من الصعاليك، فوضعه صاحب "لسان العرب" نقلا عن ابن سيده عن ابن الأعرابى بين "أغربة العرب" وكذلك صاحب "تاج العروس" وضعه نقلا عن "التهذيب ولسان العرب" وكذلك وضعه ابن الأعرابى فى نوادره بين "أغربة الجاهلية" والشنفرى نفسه صرح فى بعض أشعاره بأنه "هجين"[٢٨]

أمه:

أمه كانت أمة أجنبية: ولذلك عد من أغربة العرب، الذين كان آباؤهم ينبذونهم لعار ولادتهم، لأنهم لم يكونوا أبناء الأحرار.[٢٩]

ومن المحتمل أن تكون أم الشنفرى مولودة من أب حر و أم أمة كما يرى البعض. ولكن وصف الشنفرى لأمه بأنها "ابنة الأحرار" لا يخلو من أن يكون تعبيرا عاطفيا يتلاءم مع ذلك الجو العاطفى الشديد الحساسية التى قيلت فيه الأبيات، فهو صرخة من نفس الشنفرى الحساسة فى وجه ابنة سيده المتعجرفة، يعلن لها فيها أن العبودية وضع اجتماعى عارض لا يعترف به، لأن الله لم يخلق الناس عبيدا، وأنه إذا كانت الأوضاع الظالمة قد جعلت

من أمه أمة فإن هذا لا يخرج من الوضع الإلهى الذى خلقها عليه، فهى ابنة الأحرار قبل أن تكون أمة فى الوضع الاجتماعى لحياة الناس. ويعقب بقوله: "لو تعرفينها" فكأنه يريد أن يقول لها ذلك القول الذى قال عمر بن الخطاب لعمرو بن العاص فيما بعد: "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا" فإذا كانت هذه الفتاة (ابنة سيده) ترى أمه أمة، فإنه يراها ابنة الأحرار.[٣٠]

نشأته الأولى:

إن ابن الأنبارى صاحب شرح المفضليات روى ثلاث روايات تتعلق بنشأته الأولى، اثنتين منها عن مؤرج، إحداهما تلك التى رواها الأصفهانى عن النمرى -والتى سنذكرها بعد قليل- ويقول فى الأخرى: "ويقال إن السبب فى غزو الشنفرى الأزد وقتلهم أن رجلا منهم وثب على أبيه فقتله، والشنفرى صغير، وكان أبوه فى موضع من أهله، ولكنه كان فى قلة، فلما رأت أم الشنفرى أن ليس يطلب بدمه أحد ارتحلت به وبأخ له أصغر منه، حتى جاورت فى فهم، فلم تزل فيهم حتى كبر الشنفرى، فجعلت تبدو منه عرامة، وجعل يكره جانبه، فوقع فى نفس تأبط شرا، فكان يكرمه، ويدنيه، وكان يغير مع تأبط شرا، حتى صار لا يقام لسبيله.

والرواية الثالثة عن راوية مجهول، يقول فيها: إن الأزد قتلت رجلا من فهم فى خفرة، والرجل (المقتول) يقال له الحارث بن السائب الفهمى، فرهنوهم بالشنفرى وأمه وأخيه، وأسلموهم، و لم يفدوهم، فنشأ فيهم الشنفرى، فكان شديد البأس والنفس، وكان أشد فهم على الأزد قتلا وسلبا.[٣١]

فهذه الروايات الثلاثة التى ذكرها الأصفهانى فى الأغانى وابن الأنبارى فى شرح المفضليات، وهى متناقضة، ولكنها -حسب استنتاجنا- تلقى الضوء على أن الشنفرى نشأ فى غير قومه، حيث انتقل أو نقل وهو غلام صغير إلى قوم آخرين وهم بنو شبانة بن فهم، ثم انتقل أو نقل منهم إلى بنى سلامان بن مفرج وهم من الأزد أيضا، وأن حياته فى هذا التنقل لم تكن حياة العزة التى كان يحظى بها أبناء القبيلة، والعشيرة، وإنما كانت حياة الدخلاء على القوم. وبسبب فقدان التوافق الاجتماعى مع قبيلته الأزد أعلن ثورته عليهم: حتى تركهم إلى قوم آخرين أكرم منهم، قوم لم يكونوا من الإنس: وإنما من الوحوش، الذين وجد عندهم ما افتقده فى قومه. ومن هنا اختار الاتجاه إلى الصعلكة، وقطع الطريق. وحين انتقل إلى قبيلة فهم: تلك القبيلة المتسرة المشهورة بلصوصها، وتم اتصاله بتأبط شرا الصعلوك، لقن دروس الصعلكة على يديه، حيث أنه وجد فيه تلميذا ممتازا، حتى صار صعلوكا لايقام لسبيله: ورأى الشنفرى أن فرصة الانتقام من قبيلته الأزد قد سنحت له.

بداية حياته في الصعلكة:

أما عن تصعلكه فالأمر غامض كل الغموض، وقد ثلاث روايات متضاربة ذكرها الأصفهاني في كتابه الأغاني ج ٢١ في هذا الصدد، إحداها عن محمد بن هشام الثعري يسنده؛ وتذكر أن الشنفرى أسرته بنو شبابة بن فهم، فلم يزل فيهم حتى أسرت بنو سلامان بن مفرج من الأزد رجلا من بني شبابة، فقدته بنو شبابة بالشنفرى، فكان الشنفرى في بني سلامان لاخسه إلا أحدهم، حتى نازعته بنت الرجل التي في حجره، وكان السلامي الغداء والعشاء، فقال لها الشنفرى: اغسلي رأسي يا أخية، فأنكرت أن يكون أخاها و لطمته، فذهب مغاضبا حتى أتى الذي اشتراه من فهم، فقال له: اصدقني ممن أنا ؟ قال: أنت من الأوس بن الحجر، فقال: أما إني لن أدعكم حتى أقتل منكم مائة عما استعبدتموني.

وأما الثانية فعن راوية مجهول يكذب فيها هذه الرواية ويقول: إن الأزد قتلت الحارث بن السائب الفهمي، فأبوا أن يودوا بقتله، فباء بقتله رجل منهم يقال له حرام بن جابر؛ فلما ترعرع الشنفرى جعل يغير على الأزد مع فهم.

وأما الثالثة فعن راوية مجهول أيضا يكذب فيها الروايتين السابقتين، ويقول فيها: "بل كان من سبب أمر الشنفرى أن بني سلامان بن مفرج سبت الشنفرى وهو غلام، فجعله الذي سباه في غنمه يرعاها مع أمة له، فلما خلا بها ذهب ليقبلها، فصكت وجهه، ثم سعت إلى أبيها فأخبرته، فخرج إليه ليقتله، فوجده يشد أبيات يأسف فيها على أن هذه الفتاة لا تعرف نسبه، فلما سمع الرجل قوله سأله: ممن هو ؟ فقال: أنا الشنفرى أخو بني الحارث بن ربيعة، فقال له: لولا أني أخاف أن يقتلني بنو سلامان لأنكحتك ابنتي، فقال عليّ إن قتلوك أن أقتل منهم مائة رجل بك، فأنكحه ابنته، وخلى سبيله، فسار بها إلى قومه، فشدت بنو سلامان خلافه على الرجل فقتلوه، ثم أخذ يوفي بوعده للرجل: فيغزو بني سلامان ويقتلهم.

ولكن الرواية الثانية التي يرويها ابن الأنباري عن مؤرج، والتي تتحدث عن قتل الأزد أباه لعلها هي أقرب الروايات إلى الحقيقة، لأن الشنفرى نفسه صرح في بعض الأبيات بأن قومه قد أضاعوا أباه. وذكر في رواية أن أقدم بني وهب حرام بن جابر، فقيل له: هذا قاتل أبيك، فشد عليه فقتله" وذكر صاحب الشعراء الصعاليك أنه صرح بهذا في تائيته المفضلية.[٣٢]

وبلغت الرغبة في الانتقام في نفس الشنفرى حدا جعله يحرص على التفنن فيه، فكان يصنع النبل، ويجعل أقواقها من الفرون والعظام، فإذا غزاهم عرفوا بأقواقها في قتلاهم. وكان دائما إذا أراد أن يرمي رجلا منهم قال له تحذيرا: أطرفك ؟ ثم يرمي عينه، وذلك حسبما ذكره الأصفهاني صاحب الأغاني وابن

الأنباري صاحب شرح المفضليات للضبي.[٣٣]

ومن المتفق عليه أن عداوته تركزت على بني سلامان حتى آلى على نفسه أن يقتل مائة رجل منهم، وأنه ظل مصمما في تنفيذ وعده هذا، حتى قتل منهم تسعة و تسعين رجلا قبل أن يدركه الموت.

ولكن هناك حيران غريبان اتفقت عليهما الروايات جميعا، وغرابتهما هي مصدر الطرافة: أحدهما أنه حين مات مقتولا لم يكمل العدد المطلوب وهو المائة إلا تسعة وتسعين من المائة الذين أقسم أن يقتلهم من بني سلامان، وبعد موته برمس لم يحدده الروايات مر رجل من بني سلامان فاصطدمت رجله بجمجمة الشنفرى، فعقرت، فمات، فاكتملت به المائة. والحير الثاني هو أن الوصية الوحيدة التي أفضى بها عند موته حين هم أعداؤه بشله هي ألا يدفنوه؛ بل يتركوا جيفته في العراء غنيمة للضبع المشهورة عن الحيف بعبارها الطعام الشهي المفضل لديها، وقد صاغ الشنفرى وصيته هذه في شعر من أشهر ما حرصت الكتب العربية القديمة على إثباته وتناوله، حيث يقول فيه:

فلا تقبروني إن قبري محرم
عليكم ولكن أبشري أم عامر

نهاية حياته:

اتفقت الروايات على أنه حين ترك بني سلامان ثائرا موعدا، استطاع أن يهجم عليهم بغاراته الملاحقة، وترصد لهم أن يقتل منهم تسعة وتسعين رجلا - كما سبق أنهم أيضا حاولوا أكثر من مرة أن يتمكنوا منه في كمائن ومراصد، فأفلت منهم بسرعته الخارقة في العدو،[٣٤] وبفطنته وحسه المرهف في التنبه للخطر، ثم التخلص منه حتى ضرب به المثل في الحذق والدهاء، ولما حانت منية الشنفرى، قدر لأعدائه أن يظفروا به، فقد ترصد له ثلاثة من أعدائه دائما لبلة، هم لحارم الفهمي، وأسيد بن جابر السلاماني، وابن أخ له لم تذكر الروايات اسمه، فسر عليهم الشنفرى، فأحس بهم، وكان لا يحس حضرا، ولا يرى سوادا إلا رمى صوبه، فرمى فشك ذراع ابن أخي أسيد إلى عضده، فلن يتأوه، فقال الشنفرى: "إن كنت شيئا فقد أصبتك، وإن لم تكن شيئا فقد أمنتك" واستمر في مسيره حتى أصبح على رأس الرصد، وكانوا متفرقين على الأرض، فنادى منهم قال أسيد لحارم: أسلل سيفك، ولكن الشنفرى كان إلى سيفه أسرع، فأهوى به إلى حارم، ولكنه لم يصب غير أصبعين من يده. وحينئذ كانوا قد أطبقوا عليه، ولكن الشنفرى استطاع أن يصرع اثنين منهم لحينه، وهما حارم وابن أخي أسيد، وجاء أسيد فنزع سلاح الشنفرى منه، وحين قبضوا على الشنفرى نقلوه إلى قومهم وأرادوا أن يشفوا نفوسهم المتأججة بالنقمة عليه، فبدأوا تعذيبه نفسيا وجسديا، فقالوا له: أنشدنا، يريدون: أسمعنا من شعرك، قال: "إنما النشيد على

الأنباري مع اختلاف في الروايات" تظهر فيهما قوة نفسه وبراعيم تمرده الأولى.

وحين لطمته الفتاة السلامية سجل في شعره تلك الحادثة البعيدة الأثر في حياته، وسجل أسفه على أن هذه الفتاة المغرورة لا تعرف شيئ عن نسبه.

له قصيدة طويلة اسمها لامية الشنفرى، هذه القصيدة سميت (لامية العرب) يقال إن هذه القصيدة تنفرد دون غيرها من قصائد عربيا من حيث المزايا والمحاسن الفنية في تقديم حياة العرب في العصر الجاهلي. والجزء الأكبر من شعره يدور حول الصراع بينه وبين بني سلامان، والجزء الباقي منه حول أحاديث تصعلكه وفقره وتشرده وغاراته على غير بني سلامان.

الهوامش:

[1] لامية العرب/د. عبد الحليم حفني: ص: ٥٣

[2] الصعاليك في العصر الجاهلي: ص: ٧

[3] من الظواهر الفنية في الشعر الجاهلي ص: ٢٩

[4] انظر: الحيوان للجاحظ: جـ ١

[5] من الظواهر الفنية في الشعر الجاهلي: ص: ٢٩

[6] الفرقان: ٦٣

[7] البقرة: ٦٧

[8] أدب الإسلام ص: ٩٣

[9] من الظواهر الفنية في الشعر الجاهلي: ٣٠-٣١.

[10] من الظواهر الفنية في الشعر الجاهلي: ٣٠-٣١.

[11] من الظواهر الفنية في الشعر الجاهلي: ٣٠-٣١.

[12] الصعاليك في العصر الجاهلي ص: ٢٧-٢٩

[13] الصعاليك في العصر الجاهلي ص: ٢٧-٢٩

[14] الصعاليك في العصر الجاهلي ص: ٢٧-٢٩

[15] لامية العرب/ د. عبد الحليم حفني ص: ٥٨

[16] لامية العرب/ د. عبد الحليم حفني ص: ٥٨

[17] لامية العرب/ د. عبد الحليم حفني ص: ٥٩

[18] لامية العرب/ د. عبد الحليم حفني ص: ٦٠

[19] لامية الشنفرى (ديوان لامية العرب)

[20] لامية العرب/ د. عبد الحليم حفني ص: ٦٤

[21] الطوطم الغنية في الشعر الجاهلي ص: ٣١

[22] الشعراء الصعاليك ص: ٣٣٢

[23] من الشعر الجاهلي/د. طه مصطفى أبو كريشة: ٤

[24] الصعاليك (أخبارهم وأشعارهم) ص: ١٣٢

[25] الشعراء الصعاليك ص: ٣٣١

[26] لامية العرب ص: ٥٤

[27] لامية العرب ص: ٥٤

[28] الصعاليك في العصر الجاهلي ص: ١٣٢ وانظر: الشعراء الصعاليك ص: ٣٣١

[29] من الشعر الجاهلي ص: ٤ وانظر: العصر الجاهلي /د. شوقي ضيف ص: ٣٧٥

[30] الشعراء الصعاليك ص: ٣٣٣

[31] المرجع السابق ص: ٣٣٥ نقلا من شرح المفضليات لابن الأنباري: ١٩٦ و أيضا: ١٩٨.

[32] الصعاليك في العصر الجاهلي ص: ١٣٧ وانظر: الشعراء الصعاليك ص: ٣٣٦

[33] الشعراء الصعاليك ص: ٣٣٦ وانظر: الأغاني ج ٢١

[34] حين ضرب به المثل في العدو، ويقول الأصفهاني في كتابه الأغاني صورة من مقدرة الشنفرى في العدو فيقول: "فرع حظو الشنفرى ليلة قال فوجد أول

المسرة" ... ثم ضربوا يده فأصيبت ولم تنفصل عنه، فقال في ذلك شعرا يرثي يده، ويفخر بما أدته هذه اليد من عظائم ومشاهد،[35] ثم قال له قائلهم: أ أطرفك ؟ قال الشنفرى كذلك كنا نفعل، وكان إذا أراد قتل واحد منهم قال له: أ أطرفك ؟ ثم يرمي عينه، ثم قالوا له حين أرادوا قتله: أين نقبرك؟ فاستنكر أن يقبروه، وهو كان يعلم أنهم لابد أن يجتزوا رأسه، فقال لهم فيما يشبه السخرية العميقة من حيث المعنى: إن ما يبقى بعد رأسه ليس داشأن ولا يستحق الاهتمام به وذلك في قوله الذي يمكن أن نعتبره وصيته:

فلا تقبروني إن قبري محرم
عليكم، ولكن أبشري أم عامر[36]
إذا احتملوا رأسي وفي الرأس أكثري
وغودر عند الملتقى ثَمَّ سائري[37]
هنالك لا أرجو حياة تسرني
سجيس الليالي مُبْسلا بالجرائر[38]

رثاء تأبط شرا بعد موته:

وبعد ما قتلوه قد رثاه رفيقه وصديقه تأبط شرا، وعدّد بعض مآثر الشنفرى وآثار شجاعته، وعاهده بأنه سيبقى وفيا له وللصعلكة وغاراتها، ولن ينسى ثأره له، يقول:[39]

على الشنفرى سارى الغمام ورائح
غزير الكلى، وصيب الماء باكر
عليك جزاء مثل يومك بالجيا
وقد أرهفت منك السيوف البواتر
فإنك لو لاقيتني بعد ما ترى
وهل يُلفينَّ مَنْ غَيَّبته المقابر
لألفيتني في غارة اتسمي بها
إليك وإما راجعا أنا ثائر

وهكذا انتهت حياة الشنفرى الصعلوك، ولكن الروايات جميعا اتفقت على عدم الاقتناع بأن الموت أخمد تلك الشعلة، وأسكن تلك العاصفة التي كانت في نفس الشنفرى فأضافت إلى الشنفرى فترة لاحقة بعد موته، وكأنها فترة الامتداد لحياته، بل تحدثت بعض الروايات عن الشنفرى بعد موته كأنه لا يزال حيا متربصا أو متحينا أن يوفي بقسمه كما نرى رواية في الأغاني للأصفهاني.

ولا شك أن هذه الحادثة غريبة وطريفة ويمكن أن تكون أسطورة أو قصة مخترعة أو محاولة من شخص إلباس قصة مخترعة ثوب الحقيقة. وصحيح أن إجماع الروايات لايؤدي إلى الجزم بصحة هذه الحادثة إلا أنه ليس هناك ما يصطدم بالعقل، أو ما يدخل في باب المحال. فليس هناك ما يمنع أن تتصادف عشرة رجال بعظام ميت، ويكون الميت هو الشنفرى، وخاصة أنه أوصى ألايدفنوه، ولاتوجد رواية تدل على أنهم خالفوا وصيته ودفنوه.

شعره:

يقال إنه كان شاعرا منذ طفولته، ويروى له بيتان خاطب بهما أمه بعد مقتل أبيه وموت أخيه. "الشعراء الصعاليك ص. ٣٣٧ نقلا من صاحب الأغاني وابن

نزرة تراها إحدى وعشرين حطوة والثانية سبع عشر حطوة" لامية العرب، ص: ٧٧

[٣٠] لامية العرب ص: ٧٧

[٣١] الشعراء الصعاليك ص: ٣٣٧

[٣٢] في الرأس أكثرى: عقلى

[٣٣] ضحيس الليالى، وفى رواية ضمير الليالى يعنى طوال الليل، سيسلا باجرائر يعنى مرعوبا باجرائم

[٣٤] لامية العرب ص: ٨٠

❋ ❋ ❋ ❋

مَثَل من التاريخ:

عندما وقف الإمام الشافعى رضى الله عنه أمام شجرة التوت.. فماذا لفت نظره منها؟

إن الطفل الصغير يحلم بما فيها من ثمر شهى..

والنجار ينسق منها بخياله باباً.. أو نافذة..

والحران المكدود.. يحب فيها الظل الوارف..

وهكذا.. كل يغنى على ليلاه!

يد أن الإمام الشافعى رضى الله عنه.. يتجاوز هذا الأفق الضيق.. المحدود.. لينتقل من الشجرة إلى منشئها سبحانه وتعالى..

من الطبيعة.. إلى حقائق الشريعة..

لقد قال:

هذا شجر التوت:

لونه واحد.. وطعمه واحد..

ومع ذلك:

يأكله البعير فيخرج البعر..

ويأكله الغزال فيخرج المسك..

ويحط فوقه النحل.. فيسيل عسلا مصفى..

ويأكله الدود.. فيخرج الحرير.. وهو شيء واحد.. فتبارك الله أحسن الخالقين!